جامعة البصرة
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

قراءة في مناجاة الإمام علي عليه السلام عن الأمان

أ . م . د
شيماء هاتو فعل

المقدمة

المناجاة لسيد المتكلمين والبلغاء ، وهو يناجي ربه بكلمات رنانة وموسيقى جميلة وعبارات صادحة يشعّ منها الصدق والامتنان والتمسك بالله والاعتراف بألوهيته ، والمناجاة : المكالمة سرا . والله يعلم السر كما يعلم العلن [١] والقارئ لهذه المناجاة يستطيع أنْ يقسم المناجاة على قسمين : القسم الأول سؤال العبد ربَّه الأمان ، والقسم الآخر إقرار وإذعان من العبد إلى ربه ، فضلاً عن ذلك فأنّها تحتوي على أساليب وتراكيب وفنيات جمالية وثنائيات ضدية وصور واقعية وفكرية تناغي العقل والقلب معاً .

ونستطيع ان نحدد الملامح التي ضمتها المناجاة بالآتي :

& الاستشهاد بآيات القران الكريم

أبتدأ الإمام علي عليه السلام المناجاة بالنداء للمدعو بـ (اللهم) التي غالباً ما يبدأ بها أدعيته الطويلة ومناجاته المعروفة ففيها التعظيم والتوقير لله عز وجل يعمد الداعي لهذه الآلية جاعلاً منها مدخلاً جميلاً لما سيأتي بعدها من محتوى المناجاة ، ثم تكرار الفعل (اسالك) والاستشهاد بالآيات القرآنية ، وكيف لا يستشهد الإمام بها وهو عِدل القران ومعجزته الناطقة ، ففي مناجاته استشهد بآيات مختلفة جاءت متناسبة ومتناسقة مع الإطار والمحور الذي يتحدث فيه إذ" إن توظيف الكلمة المفردة أو اللفظ الواحد ، يُقصَد به اختيارها وانتقاؤها في موضوعها المناسب وموطنها المركزي اللائق الدقيق ، إذ تستقر في مكانها وموقعها الجمالي الذي تشع بوساطته دلالات محتوى المضمون الرئيس أو مضمون المحتوى المستهدف تجاه المتلقي للنص " [٢]

ومن هذه الآيات قوله تعالى " يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[٣] وقوله أيضاً " وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً [٤] وقوله عز وجل " يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ " [٥] وقوله تعالى " يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ " [٦] وقوله تعالى " يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ " [٧] وقوله أيضاً عز وجل " يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ" [٨] وقوله تعالى " وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ، وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ، كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ، نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى " [٩] وكل ما تشير إليه الآيات وتؤكده هو الاشارة إلى يوم القيامة والحسرة والندامة وكأنه ينبه الإنسان إلى تجنب وتلافي النسيان الذي يصيبه ويجعل العمل الصالح والتقوى الاساس الذي يسعى إليه فيثاب عليه ويُقوم من اخلاقه ، فأسلوب التعبير القرآني لا يدعو إلى الشك والضلالة وانما يأتي باليقين واستعماله دليل قاطع على ما يقوله ويدعو إليه .

وإذا جئنا إلى تفصيل المناجاة فأن محورها هو سؤال الإمام عن الأمان الذي لم يطلبه في الحياة الدنيا لأنه يرى أنَّ هذه الحياة زائلة لا خير فيها وإنّما يطلبه في دار الآخرة دار المكوث والقرار ويبدأ بتعدادها فهي تلك الدار التي لا ينفع فيها مال ولا بنون على عكس ما جاء في قوله تعالى " الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا " [١٠] وهذه الزينة زائلة ، وإنَّما طلب أمراً ينفعه باقياً معه لا يتركه عندما لا تدركه أمواله وأولاده ، وهم أعز أشياء يمتلكها الإنسان في الحياة وتفنى من أجلها روحه وشبابه ، ولكنها لا تعني له شيئاً وكأنما كان عمله وسعيه في الحياة من أجل امر لا قيمة له إلا من جاء بقلب صحيح يعرف الله ويتمسك به ، وهذا ما جاءت به كتب التفاسير التي تفسّر هذه الآية " (يوم لا ينفع مال ولا بنون) أي : لا ينفع المال والبنون أحدا إذ لا يتهيأ لذي

المال أنْ يفتدي من شدائد ذلك اليوم به ، ولا يتحمل من صاحب البنين بنوه شيئا من معاصيه (إلا من أتى الله بقلب سليم) من الشرك والشك ... وقيل : سليم من الفساد والمعاصي . وإنما خص القلب بالسلامة ، لأنه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد ، من حيث إن الفساد بالجارحة ، لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد . ورُويَ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : هو القلب الذي سلم من حب الدنيا . ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : " حب الدنيا رأس كل خطيئة "[١١] والسؤال الذي يوجّهه الإمام يعني الحاجة والافتقار لله سبحانه وتعالى .

ويسأله الأمان يوم يعض الظالم على يديه وهي كناية عن الندم وعدم تداركه للأمر ، ثم يتمنى لو كان متمسكاً بتعاليم النبي صلى الله عليه وآله ليكون له هادياً ومعيناً وهذا يفسر بقوله " يوم " يعض الظالم على يديه " تلهفا على ما فرّط في جنب الله ، في ارتكاب معصيته . وقيل : إنَّ الآية نزلت في أبي بن خلف ، وعقبة ابن أُبي معيط ، وكانا خليلين ، ارتد أُبي لّما صرفه عن الاسلام عقبة . وقتل عقبة ابن أُبي معيط يوم بدر صبرا . وقُتِلَ أُبي بن خلف يوم أحد ، قتله النبي صلى الله عليه وآله بيده ، ذكره قتادة . وقال مجاهد : الخليل – ههنا – الشيطان ، وفلان كناية عن واحد بعينه من الناس ، لأنه معرفة [١٢]

ويسأل الأمان عندما تُفضَح وجوه المجرمين ويعرفون من أعمالهم التي تكون سيماء وجوهم دالة عليهم ويفسر العلامة المجلسي هذه الآية بقوله " يعرف المجرمون بسيماهم أي بعلامتهم وهي سواد الوجوه وزرقة العيون ، وقيل : بأمارات الخزي ، فيؤخذ بالنواصي والاقدام فتأخذهم الزبانية فتجمع بين نواصيهم وأقدامهم بالغل ، ثم يسحبون إلى النار ويقذفون فيها [١٣] في حين يرى الشيخ المفيد في تفسير هذه الآية " عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى : " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام " فقال : يا معاوية ما يقولون في هذا ؟ قلت : يزعمون أنّ الله تبارك وتعالى يعرف المجرمون بسيماهم في القيامة فيأمر بهم فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم فيلقون في النار ، فقال لي و [كيف] يحتاج الجبار تبارك وتعالى إلى معرفة الخلق بسيماهم وهو خلقهم ؟ قلت : فما ذاك ، جعلت فداك ؟ فقال : ذلك لو قام قائمنا أعطاه الله السيماء فيأمر بالكافر فيؤخذ بالنواصي والأقدام ثم يخبط بالسيف خبطا "[١٤].

ويسأله الأمان عندما يتبرأ الاب من ابنه والأبن من أبيه ويضرب لذلك مثلاً لدرجة القرابة والالتصاق بين الأب وابنه في الحياة ، ولكن في الآخرة ، فمن هول المطلع وشدة الحساب ينسى الأب ابنه أو يتجاهله حتى وفي المناجاة يظهر الإمام الأهوال التي يلاقيها الإنسان في الآخرة ويرسمها بهذه الكلمات موضحاً سوء عاقبة المسيئين الذين تجاهلوا الآخرة واهتموا بالحياة ومغرياتها وكفى به ناصحاً ومرشداً ودليلاً لهم ، وكأن مَنْ يقرأ هذه الكلمات لا يصدق بعد أنْ عاش في الدنيا في لهو المغريات والأنانية لذلك جاء بعبارة (أن وعد الله حق) لكي يبعد الشك ولأول وهلة من يتصور أو يبتعد في فكره من عدم وجود هكذا يوم وهكذا حساب .

ويحيط الإمام الظالمين باللعنة وسوء الدار الذي شيدوه لهم في الدنيا ، ويلعنهم ونلحظ الأئمة يقولون ، ومنهم الإمام الحسين عليه السلام اللهم اجعلني مظلوماً ولا تجعلني ظالماً ، وأي عاقبة سيئة وأي ظلم يظلم الإنسان فيه نفسه عندما يُشّيد له في الآخرة بيتاً مثل بيت العنكبوت ، قد اصابه الوهن ، لا يقي صاحبه من برد ولا حر ومن هذا فأنَّ الله لا يضيع للإنسان مثقال ذرة إنْ كانت حسنة أو سيئة إلا وكتبها في لوح محفوظ . ويذهب الشيخ

الطبرسي في تفسير مجمع البيان بقوله " (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) أي : إن اعتذروا من كفرهم لم يُقبل منهم ، وإن تابوا لم تنفعهم التوبة ، وإنما نفى أن تنفعهم المعذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار الدنيا ، لأنَّ الآخرة دار الإلجاء إلى العمل ، والملجأ غير محمود على العمل الذي الجأ إليه . (ولهم اللعنة) أي : البعد من الرحمة ، والحكم عليهم بدوام العقاب (ولهم سوء الدار) جهنم "[١٥]. في حين يفسر السيد الطباطبائي الآية بقوله " يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار " تفسير ليوم يقوم الاشهاد ، وظاهر إضافة المصدر إلى فاعله في قوله " معذرتهم " ولم يقل : أن يعتذروا ، تحقق معذرة ما منهم يومئذ ، وقوله : " ولهم اللعنة " أي البعد من رحمة الله ، وقوله : " لهم سوء الدار " أي الدار السيئة وهي جهنم " [١٦]

ولعل أسوا ما في الأمر هول العذاب والعقاب في تلك الدار التي يهرب الإنسان فيها من أقرب الناس له وهم أمه وأبيه وأخيه وكأنّما الناس سكارى كل مشغول بعمله الذي يغنيه عن الاطلاع أو حتى إلقاء نظرة عليهم . وهذا يؤيده التفسير الذي يقول فيه " . والصاخة : الصيحة الشديدة التي تصّم الأسماع من شدتها ، والمراد بها نفخة الصور . وفي قوله تعالى : " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه " إشارة إلى شدة اليوم فالذين عُدّوا من أقرباء الانسان وأخصائه هم الذين كان يأوي إليهم ويأنس بهم ويتخذهم أعضادا وأنصارا يلوذ بهم في الدنيا لكنه يفر منهم يوم القيامة لما أنَّ الشدة أحاطت به بحيث لا تدعه يشتغل بغيره ويعتني بما سواه كائنا من كان فالبلبلة إذا عظمت واشتدت وأطلت على الانسان جذبته إلى نفسها وصرفته عن كل شيء . والدليل على هذا المعنى قوله بعد : " لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " أي يكفيه من أن يشتغل بغيره ... " [١٧]

وهنا تبلغ شدّة تخّلي الإنسان عن أقرب المقّربين له ، وكأنّما ينزع كل ما بينه ويبعث فيه إلى المهالك فنلحظه يتخلى عن أمور يتمسك فيها كل التمسك ولا يتركها فهي مرافقة له وهم الأبناء ، الصاحبة ، الأخ العشيرة ، ليأتي له الجواب بـ كلا لتنفي عنه كل ما كان يتطّلع عليه ، أو يحسب له حساب فيكون له المعين والمساعد والغوث ولكن هيهات له من النجاة ، وتأتي قمة الأنانية والتخلي من ذلك الإنسان الذي يستغني عن موجودات الحياة ، وكأنما يريد أن ينجو بروحه ويقدم المقربين له ، ولكن ذلك اليوم لا ينتفع إلا بما قدمه وعمله في حياته . وقد جاء في تفسير ذلك " أن المجرم يبلغ به شدة العذاب إلى أنْ يتمنى أنْ يفتدي من العذاب بأحب أقاربه وأكرمهم عليه بنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته وجميع من في الارض ثم ينجيه الافتداء فيود ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه . والمعنى " يود " ويتمنى " المجرم " وهو المتلبس بالأجرام أعم من الكافر " لو يفتدي من عذاب يومئذ " وهذا هو الذي يتمناه ، والجملة قائمة مقام مفعول يود . " ببنيه " الذين هم أحب الناس عنده " وصاحبته " التي كانت سكنا له وكان يحبها وربما قدمها على أبويه " وأخيه " الذي كان شقيقه وناصره " وفصيلته " من عشيرته الأقربين " التي تؤويه " وتضّمه إليها " ومَنْ في الأرض جميعا " من اولي العقل " ثم ينجيه " هذا الافتداء . قوله تعالى : " كلا إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى " كلا للردع ، وضمير " إنها " لجهنم أو للنار وسُميّت لظى لكونها تتلظى وتشتعل ، والنزاعة اسم مبالغة من النزع بمعنى الاقتلاع ، والشوى الاطراف كاليد والرجل يقال : رماه فأشواه أي أصاب شواه ... ، وإيعاء المال إمساكه في وعاء . فقوله : " كلا " ردع لتمنيه النجاة من العذاب بالافتداء وقد علل الردع بقوله : " إنها لظى " الخ

ومحصله أن جهنم نار مشتعلة محرقة للأطراف شأنها أنها تطلب المجرمين لتعذبهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائنا ما كان . فقوله : " إنها لظى " أي نار صفتها الاشتعال لا تنعزل عن شأنها ولا تخمد ، وقوله : " نزاعة للشوى " أي صفتها إحراق الاطراف واقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذبه . وقوله : " تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى " أي تطلب مَنْ أدبر عن الدعوة الإلهية إلى الإيمان بالله وأعرض عن عبادته تعالى وجمع المال فأمسكه في وعائه ولم ينفق منه للسائل والمحروم " [١٨].

وممّا يلفت الانتباه أنَّ سؤال الإمام في مناجاة الأمان كانت عن أمور بالنسبة لأي إنسان كل وجوده ، وتراه يُضحي بكل غالٍ ونفيس من اجلها ، ولكن النظرة في الآخرة تأتي لتّبدد كل هذه الحقائق وهذا التعلق فالمال والبنون أو الأهل (الأب ، الأم) من الأمور العزيزة على الإنسان في الحياة ، ولكن في الأخرة نجد عكس ذلك تماماً ، وكأن شيئاً لم يكن وتتحطم كل الموجودات .

فضلاً عن ذلك نجد المناجاة تختزل كل السنوات والشهور والأيام بساعاتها التي عاشها الإنسان في الدنيا من أجل اليوم الذي لا ينفع فيه إلا العمل الصالح والتقرب إلى الله والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه بالابتعاد عن المعاصي والذنوب وتجنّب السيئات والحرص على كسب الحسنات التي تزيد من كفة الإنسان ويحصل بها على رضا الله .

ومن الجدير ذكره أن للإمام زين العابدين عليه السلام مناجاة قريبة اللفظ والمعنى من مناجاة الإمام علي عليه السلام يطلب فيها الأمان ومنها قوله : بسم الله الرحمن الرحيم " إلهي ، الأمان الأمان يوم ... " يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله " . إلهي ، الأمان الأمان " يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه و صاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . إلهي ، الأمان الأمان " يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلانا خليلا " . إلهي ، الأمان الأمان " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلب سليم ... " [١٩] ونجد اليوم الذي خصَّ ذكره الإمام في مناجاته هو يوم القيامة والحساب يوم الصاخة ، وهذا ما تفسره الآيات القرآنية التي وظفها الإمام في مناجاته .

ونلحظ أنَّ الإمام قد ترجم مناجاته هذه بمناجاة أخرى له عليه السلام يقول فيها " إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً ، وكفى بي فخراً أنْ تكون لي رباً ، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب "[٢٠] فهو عندما يقول في مناجاته " إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً " قريبة بل هي ترجمة لقوله " أنا العبد ، أنا الفقير ، أنا السائل ، أنا الضعيف ، أنا الضال ، أنا المرحوم ، أنا المذنب ، أنا البخيل ... " أما عندما يقول " وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً " ترجمة حرفية لقوله " أنت الرب ، أنت الرحيم ، أنت الغفور ، أنت الجواد ، أنت المعطي ، أنت الحي ، أنت الغني ، أنت الهادي ، أنت القوي " وفي قوله " أنت كما أحب فاجعلني كما تحب " يتجلى في قوله عند نهاية مناجاته عن الأمان في طلب الرضا والكرم والفضل فهو صاحب الفضل والاحسان والطول والامتنان وهو أرحم الراحمين .

يأتي الإمام علي عليه السلام في آخر مناجاته مؤكداً رحمة الله وطلب الرضا منه فهو الجواد الكريم صاحب الفضل المتفضل مكرراً الجود لله بقوله يا ذا الجود والإحسان والطول والامتنان ، ثم مكرراً رحمته وأنه أرحم الراحمين ، وبذلك يكون دافع الإمام من مناجاته هو بيان حب الإنسان لله عز اسمه فهو المستحق للعبادة ، فضلاً عن

الشكر لنعم المعبود على عبده وطلب مرضاته والابتعاد عن موجبات غضبه وطلب المثوبة والرحمة منه في دار الآخرة [٢١]

& فنيات المناجاة الجمالية

نقصد بالفنيات ما قامت عليه من اساليب وتعابير وتراكيب اعتمد عليها الإمام في مناجاته فهو العالم باللغة والاستعمال الامثل لها ، وما كثرة الاستثناءات التي يأتي بها الإمام علي عليه السلام عندما يُسأل الله عز وجل الأمان في ذلك اليوم الذي لا تنفع فيه تلك المغريات إنما هو توضيح للأمر الذي يُتبع وتحديداً له لأن فيه السلامة والقبول والرضا من الله سبحانه وتعالى ، وإن الأفعال التي يستعملها في المناجاة تدل على المضارعة للدلالة على الحال والاستقبال { لا ينفع / يعض / يعرف / يفر / تملك } وكلها توحي بالخذلان والخسران وفقدان الأمل ، ومما يعزز هذه المعاني قوله (مَنْ أتى بقلب سليم) أي خالصاً لله ليس فيه أحقاد وأضغان دنيوية . وقوله (ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً) مشيراً إلى ما ينفعه ويهديه إلى طريق الهداية والرشاد ، و(وعد الله الحق) الذي وعد به عباده المتقين وهي الجنة والقبول والرضا بعد الامتثال لأوامره ، ثم (اللعنة وسوء الدار) تصديقاً لوعد الله الحق فمن لم يسلك سبيل الهداية والحق حلت عليه اللعنة وهي الطرد من رحمة الله وسوء العاقبة في المقام الأخروي ، والأمر يومئذ لله فتصريف كل أمور الآخرة من أعماله التي التزم بها في الحياة ، بعد أنْ شرعها الله سبحانه وتعالى ، وأكّد عليها لتكون موازين الأمور بيد الله ، وهذا مصداق لقوله تعالى " (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) أي لا يملك أحد الدفاع عن غيره ممَّنْ يستحق العقاب ، كما يملك كثير من الناس في دار الدنيا ذلك . (والأمر يومئذ لله) وحده أي : الحكم له في الجزاء والثواب ، والعفو والانتقام . وروى عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال : إنَّ الأمر يومئذ واليوم كله لله . يا جابر ! إذا كان يوم القيامة بادت الحكام ، فلم يبقَ حاكم إلا الله . وقيل : معناه يوم لا تملك نفس لنفس كافرة شيئا من المنفعة ، عن مقاتل . والمعنى الصحيح في الآية أن الله سبحانه قد ملك في الدنيا كثيرا من الناس أمورا وأحكاما ، وفي القيامة لا أمر لسواه ولا حكم. ومتى قيل : فيجب أن لا يصح على هذا شفاعة النبي (صلى الله عليه وآله) . فالجواب : إنَّ ذلك لا يكون إلا بأمره تعالى ، وبإذنه ، وهو من تدابيره [٢٢] . وفيها أيضاً تقرير لشدة هوله وفخامة أمره ، فاذا كان يوم القيامة بادت الأحكام ، ولم يبقَ حاكم إلا الله تعالى [٢٣]

في ذلك اليوم الذي يشتغل الإنسان في أمره وحده ، وكأنما لا أهل ولا أولاد ولا متعلقات له في الحياة يسأل عنها تاركاً إياها ومتوجهاً إلى الباري عز وجل بكفنه لا غير ، فالحياة ومضة إذا لم يستغلها الإنسان الاستغلال الصحيح فسوف تذهب حياته سدى ، فضلاً عن تركيبة الجملة الفعلية المكونة من هل + الفعل يرحم دالاً على الحاضر والمستقبل .

ونجد الصور ذهنية واقعية فكرية ترسم ملامح العبودية والخضوع والاذعان من العبد (المغلوب ، الخاشع ، الذليل ، السائل ، المذنب ، الضال ... وغيرها) إلى ربه توضح الامتنان وطلب الرحمة والرضوان فضلاً عن رسم صورة واضحة صادقة معبرة عن يوم القيامة والصاخة ويوم الاشهاد وغيرها من مسميات ذلك اليوم من خلال الاستشهاد بالآيات القرآنية الدالة على ذلك .

ولا يخفى ذلك الإيقاع الموسيقي والتناغم بين الكلمات والعبارات التي جاءت واقعة في مكانها المناسب مع ما تعنيه من معانٍ دالة على ما يريده منها ، فالتكرار في العبارات بدءاً من مقدمة المناجاة في العبارة { اسالك الأمان يوم } وفيها تأكيد وإلحاح على سؤال العبد ربه عن الأمان في يوم القيامة ، فضلاً عن الجناس والطباق والمقابلة بين الكلمات والعبارات ، ففي الكلمات التي نجد فيها الطباق فأنها تحتوي أيضاً على الجناس مثل { الباقي × الفاني / المالك × المملوك / الكبير × الصغير / المعافي × المبتلى } فعلى الرغم من التشابه بين الالفاظ إلا إن فيها الاختلاف الواضح في معانيها وفرقٌ كبيرٌ بين الاله الباقي المالك الكبير المعافي ، والعبد الفاني الصغير المبتلى ...الخ إذْ "أن تجانس الالفاظ في نص ما يخلق إيقاعاً ، وجرساً موسيقياً مؤثراً في المتلقي ، ويحقق تنوعاً واختلافاً في المعاني ؛ بسبب تنوع دلالات الكلمات المتجانسة فيما بينها ، ويؤدي دوراً في تغيرها وتتابعها ويحقق عنصر المفاجأة بالنسبة للمتلقي ، نتيجة لتشابه الألفاظ في اللفظ واختلافها في المعنى " [٢٤] أما التي نجد فيها الطباق فقط { الهادي ، الضال / العظيم ، الحقير / الحي ، الميت } فالهداية والعظمة والبقاء والديمومة مقتصرة على الله ﷻ ، والضلالة والفناء والدناءة من العبد وذلك الفارق الشاسع بين الرب الرحيم والعبد الفقير .

ومن الأساليب التي وظفها في مناجاته ـــ التكرار ـــ لكلمة الموالاة وحرف النداء ـــ يا ـــ الذي ينادي به القريب لأنَّ الله سبحانه وتعالى قريبٌ عليه ويستعين به في كل مناجاته .

ومن أجل التعريف وبيان منزلة الله سبحانه وتعالى ومكانته وماذا يعني للعباد بل للمخلوقات جميعاً ، فنلحظه يستعين بالضمائر المنفصلة (أنت ، أنا) وبما أنّ الخطاب بالانا للدلالة على الذاتية والعظمة والاعجاب بالنفس لذلك كثيراً ما نستعمل عند حديثاً عن انفسنا كلمة ـ أنا ـ ونقول اعوذ بالله من كلمة أنا إلاّ أن الإمام يستعملها في محل الاستصغار والتحقير والتقليل من الشأن أمام عظم شأن الخالق واستصغار شأن المخلوق وحاجاته الملحة لله .

وما تلك الانتقالات التي يخاطب بها الإمام علي عليه السلام مولاه ـــ الله ـــ مقراً بالربوبية والألوهية له ، ظاهراً عجز الإنسان في الحياة .

وإذ ينفتح النص الدعائي بالسؤال عن ذلك اليوم الذي يبتغي فيه الإنسان الأمان مبرراً اهميته بكل شيء يعني لبني أدم الأهم ، وأنها من زينة الحياة الدنيا ، فأن من الأمور التي يتمسك بها الإنسان وتعني له الوجود (المال والبنون) ولكنه سرعان ما يتخلى عنها في لحظات وكأن شيئاً لم يكن ، وبعدها تأتي تلك الثنائية يسأل بها الله سبحانه وتعالى ويبتغي من ورائها بيان العزة والأنفة والجبروت والغنى والعدل والرحمة عندما يقول مولاي يا مولاي ـــ انت الغني وأنا الفقير وهل يرحم الفقير إلا الغني ـــ بـ أسلوب خطابي مباشر يوضح عظمة الله ورحمته من خلال التساؤل الذي يجيب عنه بالاستثناء الوحيد للكلمة/ الرحمة / التي تخص الله وحده لتظهر أسماً من أسمائه الحسنى التي انفرد بها وطبقاً لقوله تعالى(ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها) فقد وظف الإمام هذه الاسماء في مناجاته مُوضّحاً عظم مكانته ودقة احتياج الإنسان لله سبحانه وتعالى .

ومن خلال تلك الثنائية التي تبدو في طوال المناجاة يظهر الخضوع والخشوع مبتدأ مناجاته بالسؤال عن الأمان الذي يبتغيه كل إنسان ذليل خاضع يطلبه من رب كريم قوي عزيز ، لأنّ الإنسان إذْ لم يشعر بالأمان الذي يمُّن عليه الله تكون حياته هباء لا نفع منها .

كل تلك الثنائيات الضدية التي أخذت مساحة واسعة من المناجاة تؤكد قدرة الله وتمكنه وتذلل المخلوقات وخضوعها إذ " إن الغرض من التضاد خلق حالة انفعالية في نفس المتلقي ليوازن بين حالتين وذلك ما يساعد على وضوح الصورة في ذهنه وذلك ما يقصده المبدع "[٢٥] فضلاً عن ذلك فانه يأتي بالسؤال الاستفهامي بالأداة ــ هل ــ التي خرجت الى النفي أي لا يرحم المخلوق إلا الخالق ، ولا يرحم الفقير إلا الغني ... إقراراً بالعبودية والألوهية لله وحده من خلال الاسماء التي يدعو بها الإمام علي عليه السلام.

لذلك نلحظه أول ما يبدأ بالموالاة لله سبحانه وتعالى مقراً بأنَّ الله هو المولى والإنسان هو العبد ، ولا يرحم العبد إلا مولاه ، فمن تلك الثنائيات تتضح المعادلة التي خلق الله سبحانه وتعالى من أجلها الإنسان ، ومن المناجاة تتضح الهوة وذلك الفارق الذي يُذكر به الإمام الإنسان لكي لا ينساه وهي حقيقة أكد عليها القران الكريم

ولنلحظ الفارق بين الكلمات التي كونت ثنائيات ضدية وهي الاستعانة بأسماء الله الحسنى كالآتي :

هذه الثنائيات تدل على حاجة العبد لربه وعدم استغناه عنه أمام سعة ملك الله وغناه	الخضوع والاستكانة والاذعان والإقرار بوحدانيته أمـــام قدرة الله وعزته
الغني × الفقير	الخالق × المخلوق
الجواد × البخيل	المعافي × المبتلى
الرزاق × المرزوق	المتكبر × الخاشع
المعطي × السائل	الكبير × الصغير
المالك × المملوك	الغالب × المغلوب
	الرب × المربوب
	العزيز × الذليل

رحمة الله ومغفرته وسلطانه الدائم أمام الحيرة والضـــياع والخطيئة والفناء	تدل هذه الثنائيات على قوة الله وعظمته والتوقير له أمام ذلة العبد
الراحم × المرحوم	المولى × العبد
السلطان × الممتحن	الباقي × الفاني
الدليل × المتحير	العظيم × الحقير

الغفور × المذنب	القوي × الضعيف
	الحي × الميت
	الدائم × الزائل
	الهادي × الضال

تبدأ مناجاة الإمام علي عليه السلام بقوله :

" اللهم انّي أسألك الأمان يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ، وأسألك الأمان يوم يعضُّ الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، وأسألك الأمان يوم يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام ، وأسألك الأمان يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ، وأسألك الأمان يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله وأسألك الأمان يوم يفرُّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤيه ، ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه كلا إنّها لظى نزاعة للشوى ، مولاي يا مولاي أنت المولى وأنا العبد وهل يرحم العبدَ إلاّ المولى ، مولاي يا مولاي انت المالك وانا المملوك وهل يرحم المملوك الا المالك ، مولاي يا مولاي انت العزيز وانا الذليل وهل يرحم الذليل الا العزيز ، مولاي يا مولاي انت الخالق وانا المخلوق وهل يرحم المخلوق الا الخالق ، مولاي يا مولاي انت العظيم وانا الحقير وهل يرحم الحقير الا العظيم ، مولاي يا مولاي انت القوي وانا الضعيف وهل يرحم الضعيف الا القوي ، مولاي يا مولاي انت الغني وانا الفقير وهل يرحم الفقير الا الغني ، مولاي يا مولاي انت المعطي وانا السائل وهل يرحم السائل الا المعطي ، مولاي يا مولاي انت الحي وانا الميت وهل يرحم الميت الا الحي ، مولاي يا مولاي انت الباقي وانا الفاني وهل يرحم الفاني الا الباقي ، مولاي يا مولاي انت الدائم وانا الزائل وهل يرحم الزائل الا الدائم ، مولاي يا مولاي انت الرازق وانا المرزوق وهل يرحم المرزوق الا الرازق ، مولاي يا مولاي انت الجواد وانا البخيل وهل يرحم البخيل الا الجواد ، مولاي يا مولاي انت المعافى وانا المبتلى وهل يرحم المبتلى الا المعافى ، مولاي يا مولاي انت الكبير وانا الصغير وهل يرحم الصغير الا الكبير ، مولاي يا مولاي انت الهادي وانا الضال وهل يرحم الضال الا الهادي ، مولاي يا مولاي انت الراحم وانا المرحوم وهل يرحم المرحوم الا الراحم ، مولاي يا مولاي انت السلطان وانا الممتحن وهل يرحم الممتحن الا السلطان ، مولاي يا مولاي انت الدليل وانا المتحير وهل يرحم المتحير الا الدليل ، مولاي يا مولاي انت الغفور وانا المذنب وهل يرحم المذنب الا الغفور ، مولاي يا مولاي انت الغالب وانا المغلوب ، وهل يرحم المغلوب الا الغالب ، مولاي يا مولاي انت الرب وانا المربوب وهل يرحم المربوب الا الرب ، مولاي يا مولاي انت المتكبر وانا الخاشع وهل يرحم الخاشع الا المتكبر ، مولاي يا مولاي ارحمني برحمتك ، وارض عني بجودك وكرمك وفضلك ، يا ذا الجود والاحسان والطول والامتنان برحمتك يا ارحم الراحمين "[٢٦]

.....

الخاتمة

يفزع الإنسان إلى ربه ﷻ كلما اشتد به الخطب مرة داعياً وأخرى مناجياً مستخدماً جميع إمكاناته كي يصل معاناته إلى الله ، ومن عظيم لطف الله ﷻ أنْ جعل طريق العودة والهداية له ، ويترك للإنسان الفرصة كي يصحح مساره فيجد ربه غفوراً رحيماً وعطوفاً قابلاً لتوبته ، توجد فسحة أمل لا ينتظرها من أي شخص مهما كانت درجة قرابته به ، والإمام عليه السلام في مناجاته يرسم لنا حدوداً وقواعداً تحدد طريقه القويم ، وكيف أنَّ الحياة التي نعيشها هي دار فناء لا دار بقاء موضحاً ان ذلك اليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون أو أي مغرى من مغريات الحياة ، ولا ينفع ندمه وآسفه في ذلك اليوم ، ولا أي عذر من اعذاره.

وأمام الحاجة والانكسار والافتقار إلى رحمة الله تعالى تظهر عظمة الخالق ورأفته بعباده على الرغم من كثرة الخطايا والذنوب التي يقترفونها كما توضحها المناجاة ، وحالة القنوط والشعور باليأس التي نعيشها لا تكون مع الله الذي لا تحده حدود ولا تمنع من الوصول إليه الحواجز فبمجرد ما يشعر الإنسان بحاجة إلى دعاء ربه ومناجاته يتوجه بقلب صاف سليم إلى الله ﷻ يشكو حاله ، فيكون الرب أعلم بحاله وأدرى بما في القلوب فيفرغ في دعائه همه وكربه وتفتح له أبواب وأبواب فيكون العبد شاكراً وحامداً ربه ، وبذلك يعلمنا أهل البيت عليهم السلام جملة من الأمور ومنها كيفية التوجه إلى الله على ان يكون مؤدبا شاعراً بنعم الله شاكراً لها ، ومخلصاً غير شاكٍ ولا متوجسٍ ثابتاً على يقينه وإيمانه .

.....

* الهوامش

١) نهج البلاغة – خطب الإمام علي عليه السلام : ٣ / ٤٨ . وينظر : بحار الأنوار – العلامة المجلسي : ٧٤ / ٢٢٣ .

٢) نثر الإمام الحسين عليه السلام دراسة تحليلية في جمالية بنية النص ، حيدر محمود شاكر حبيب ، جامعة البصرة / كلية التربية (اطروحة) ٢٠١٢ ، ٧٧.

٣) سورة الشعراء : ٨٨ ــ ٨٩ .

٤) سورة الفرقان : ٢٧ ــ ٢٨ .

٥) سورة الرحمن : ٤١ .

٦) سورة غافر : ٥٢ .

٧) سورة الانفطار : ١٩ .

٨) سورة عبس : ٣٤ ــ ٣٥ ــ ٣٦ .

٩) سورة المعارج : ١٣ ــ ١٤ ــ ١٥ ــ ١٦ .

١٠) سورة الكهف : ٤٦ .

١١) تفسير مجمع البيان – الشيخ الطبرسي : ٧ / ٣٣٧ .

١٢) تفسير مجمع البيان – الشيخ الطبرسي : ٧ / ٢٩٢ .

١٣) بحار الأنوار – العلامة المجلسي : ٧ /٨١ .

١٤) الاختصاص– الشيخ المفيد : ٣٠٤ .

١٥) تفسير مجمع البيان – الشيخ الطبرسي : ٨ / ٤٤٨ .

١٦) تفسير الميزان – السيد الطباطبائي : ١٧ / ٣٣٨ .

١٧) تفسير الميزان – السيد الطباطبائي :٢٠ /٢١٠ .

١٨) تفسير الميزان – السيد الطباطبائي : ٢٠ / ٩ .

١٩) الصحيفة السجادية (ابطحي)– الإمام زين العابدين (ع) : ٤٩٣ .

٢٠) مفاتيح الجنان : الشيخ عباس القمي : / ١٧٩ .

٢١)ينظر : كلمة التقوى – الشيخ محمد أمين زين الدين : ١/ ٣٨١ .

٢٢) تفسير مجمع البيان – الشيخ الطبرسي : ١٠ / ٢٨٨ .

٢٣) الأصفى في تفسير القران – الفيض الكاشاني : ٢ / ١٤١٦ .

٢٤) مستويات السرد الوصفي القرآني ، دراسة أسلوبية ، د طلال خليفة سلمان ، ٢٠١٢ ، مكتب المفتش العام في ديوان الوقف الشيعي ببغداد / ١٦٤ .

٢٥) قراءة نقدية في خطبة السيدة زينب عليها السلام : د. فليح كريم خضير الركابي ، مجلة المورد ، مج ٣٧ ، ع ٢ ، ٢٠١٠ ، ١٥٤ .

٢٦) فضل الكوفة ومساجدها– محمد بن جعفر المشهدي : ٨٠ ، وينظر : المزار الكبير ، الشيخ محمد بن المشهدي : ١٧٤ ، المزار : الشهيد الأول : ٢٤٩ . وبحار الانوار : ج ٩١ / ١٠٩ ، ج٩٧ / ٤١٩ .

& قائمة المصادر

القران الكريم
١) الاختصاص- الشيخ المفيد : تح علي أكبر الغفاري ، ١ مجلد ، الناشر جماعة المدرسين في الحوزة العلمية
٢) الأصفى في تفسير القران – الفيض الكاشاني : تح مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية ، ط١ ، مطبعة مكتبة الاعلام الإسلامي ، ٢ مجلد (١٤٢٠ ــ قم)
٣) بحار الأنوار – العلامة المجلسي ، ط٢ ، ١١٠ مجلد ، مطبعة مؤسسة الوفاء (بيروت ــ ١٩٨٣)
٤) التبيان في تفسير القران ــ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، تح أحمد حبيب قصير العاملي ، ط١ ، مطبعة مكتب الاعلام الإسلامي ، ١٠ مجلد (١٤٠٩ ــ قم)
٥) الصحيفة السجادية (ابطحي)- الإمام زين العابدين (ع) ، تح ونشر مؤسسة الإمام المهدي (ع) ، مطبعة نمونة (قم ـ ١٤١١) ط١ مج ١ .
٦) فضل الكوفة ومساجدها- محمد بن جعفر المشهدي ، تح محمد سعيد الطريحي ، مج ١ ، دار المرتضى ، بيروت .
٧) قراءة نقدية في خطبة السيدة زينب عليها السلام : د. فليح كريم خضير الركابي ، مجلة المورد ، مج ٣٧ ، ع ٢ ، ٢٠١٠ .
٨) كلمة التقوى – الشيخ محمد أمين زين الدين ، ط٣ ، مطبعة مهر ، ٢٠ مجلد (١٤١٣)
٩) مجمع البيان في تفسير القران – الشيخ الطبرسي : تح لجنة من العلماء والمحققين الاحيايين ، ط١ ، ١٠ مجلد ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (١٤١٥ ــ بيروت)
١٠) المزار- الشهيد الأول ، مج ١ ، ط١ ، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام قم المقدسة (١٤١٠ ــ قم)
١١) المزار الكبير – الشيخ محمد بن المشهدي ، تح جواد القيومي ، ط١ ، مؤسسة النشر الإسلامي ، نشر القيوم (١٤١٩)
١٢) مستويات السرد الوصفي القرآني ، دراسة أسلوبية ، د طلال خليفة سلمان ، ٢٠١٢ ، مكتب المفتش العام في ديوان الوقف الشيعي ببغداد .
١٣) مفاتيح الجنان :الشيخ عباس القمي ، ط٢مصححة ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (بيروت ـ ١٩٩٨)
١٤) الميزان في تفسير القران – السيد الطباطبائي :٢٠ مجلد، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين ، قم
١٥) نثر الإمام الحسين عليه السلام دراسة تحليلية في جمالية بنية النص ، حيدر محمود شاكر حبيب ، جامعة البصرة / كلية التربية (اطروحة) ٢٠١٢
١٦) نهج البلاغة – خطب الإمام علي عليه السلام ، تح الإمام الشيخ محمد عبده ، ٤ مجلدات ، دار المعرفة ، بيروت .